

اوائل في طريق تطور السينما

1. جورج ميلييه

ظلت الأفلام في سنوات عمرها الأولى لا تتعدى مجرد التسجيل الإخباري للأحداث الواقعية، ولم تكن هناك استديوهات، وكانت الأفلام تلتقط في الشوارع، والحدائق، والشواطئ، والمصانع. وكان إعداد الفيلم كله متروكاً لقدرة المصور الذي كان يقوم بمهام المخرج، والمصور، والمدير الفني، وخبير التحميص، والطبع. وكان المصورون السينمائيون في ذلك الوقت يعدون على أصابع اليد، ومن هؤلاء المصورين خرج الرواد العظام الذين لعبوا دوراً مهماً في تطوير فن السينما، ومنهم يبرز اسم الفرنسي جورج ميلييه، الذي يرجع إليه الفضل في إخراج السينما من إطار التسجيل الإخباري للأحداث الواقعية إلى إطار آخر، هو (محاولة سرد قصة)، مستعملاً مصادر فن آخر هو (المسرح)، فدفع السينما إلى طريقها المسرحي المشهدي على حد تعبيره هو شخصياً، وبذلك دخلت السينما في أول طريقها نحو الأفلام الروائية.

استطاع ميلييه أن يكشف السر العظيم الكامن في آلة التصوير السينمائي، وهو أول من قدم سينما الفرجة، وأول من أخرج، وهو من بنى أول استديو، وكتب أول سيناريو، ورسم أول ديكور، كما ساعدته المصادفة في أن يقدم أول الخدع السينمائية.

2. إدوين بورتر

بعد جورج ميلييه، وما حققه من إنجازات مهمة في نشأة فن السينما يأتي مصور آخر هو إدوين بورتر، الذي تناول الشعلة ليكمل المسيرة. كان بورتر يعمل مصوراً في شركة إديسون، ثم أصبح بعد ذلك من كبار المخرجين الأوائل. وفي عام 1902 أخرج فيلمه الأول "حياة رجل مطافئ أمريكي"، وفي عام 1903 يأتي فيلم بورتر التالي، الذي يعتبر بداية مرحلة جديدة على طريق تطور فن السينما، وهو فيلم سرقة القطار الكبرى **The Great Train Robbery** الذي أكد فيه بورتر خطوته الأولى نحو خلق فن سينمائي حقيقي. ففي هذا الفيلم وضع بورتر يده على العناصر السينمائية التي قام المخرجون من بعده بتهدئتها وتطويرها باعتبارها عناصر خاصة بفن السينما.

3. ديفيد جريفيث

في عام 1909 أخرج جريفيث فيلم (الفيلا الوحيدة)، وقدم فيه لأول مرة فكرة اللقطات المتقاطعة، وهو ما يعرف الآن بالمونتاج المتوازي، وذلك لبيان الأحداث التي تقع في أكثر من مكان في نفس الوقت كالآتي: اللصوص يحاصرون امرأة وأطفالها، الزوج يحاول إنقاذهم، ويشتد التوتر في ذروة الفيلم بين مشهد الزوجة وأطفالها واللصوص، والزوج يقوم بالإنقاذ. وقد سميت هذه الحيلة باسم (طريقة جريفيث للإنقاذ في آخر لحظة).

بعد ذلك قدم جريفيث تحفته الكبرى "مولد أمة" **The Birth of a Nation** عام 1915، عن الحرب الأهلية الأمريكية، وقام خلال هذا الفيلم بتطوير استخدام العديد

من الأساليب الفنية التي نأخذها الآن كأمر مسلم بها، فجاء مولد أمة يضم 1375 لقطة بين لقطات كبيرة جداً، ومثل عين تنظر من خلال ثقب باب، ، ولقطات بعيدة صوّرت لمساحات شاسعة من الريف والمناطق المهجورة ، كما استخدم الكاميرا المتحركة، واستخدم أيضاً وبراءة أكبر طريقته في القطع المتداخل، أو المتوازي بين المطارد، والطريد لخلق الإثارة المتصاعدة ، وفي عام 1916 قدم جريفيث رائعته الثانية في شكل فيلم ملحمي يضم أربعة موضوعات مختلفة في فيلم "التعصب" Intolerance، الذي قدم فيه جريفيث بشكل متواز أربعة أمثلة للتعصب، تجمعها وحدة الموضوع .

4. شارلي شابلن

إذا كانت الفترة ما بين 1920 - 1940 قد شهدت أوج النضوج للفيلم الصامت، فقد شهدت الفترة السابقة لها، والتي تحكمت فيها سنوات الحرب بدء أعمال بعض المخرجين من أمثال توماس إنس Thomas Ince، وماك سينيت Mack Sennett، وأبل جانس Abel Gance، الذين وسعوا من أفق السينما، كما شهدت اعمل رجل من عباقرة السينما هو البريطاني الاصل شارلي شابلن.

فبينما بدأ جريفيث يوسع لغة التعبير السينمائي كان شارلي شابلن يستقصي إمكانات السينما من أجل الكوميديا، ويخرج فيلماً كل بضعة أيام، وكانت إحياءاته وحركاته تُعبر بأكثر مما تتطرق به كلمات الممثلين اليوم، وكانت شخصية شارلو التي ابتكرها، هي التي قادتته إلى الصفوف الأولى في تاريخ السينما، فلم تلبث هذه الشخصية الأسطورية أن تبلورت واشتهرت في كل أنحاء العالم.

بلغت عبقرية شارلي شابلن القمة فيما بين 1920 - 1930. ونمت مواهبه الطبيعية كمقلد ومهرج في الساحات الموسيقية، ومن ثم تعلم كيف يستغل فطرته الفريدة للهزليات في الفيلم الصامت، تلك الهزليات التي وضع أساسها ماك سينيت، الذي كان يوظف المونتاج لإحداث الأثر الهزلي.

نضجت شخصية شارلي شابلن الحقة بعد ذلك، وابتعد عن الضحك الرخيص، وتطور منه إلى مزج رائع من الضحك والعواطف الإنسانية، وظهرت مواهبه الدرامية الخالصة في فيلمه ذي الطابع الجدي "امرأة من باريس" Woman Of Paris 1923. ذلك الفيلم الذي كتبه وأخرجه بنفسه، وكان له الأثر البعيد في أفلامه الهزلية التي توالى بعد ذلك، حيث ظهرت له روائع سينمائية مثل "البحث عن الذهب" The City Gold Rush 1925، و"السيرك" The Circus 1928، و"أضواء المدينة" City Lights 1931، وانتقل شارلي شابلن بعد ذلك إلى معالجة القضايا الاجتماعية في أفلامه، وجعل من البؤس لوحة مؤثرة تفيض بالحب العميق للإنسانية كلها، ثم اتخذ موقفا اجتماعياً أكثر وضوحاً وصراحة في فيلم "الأزمة الحديثة" Modern Times 1936، و"ملك في نيويورك" A King In New York 1957.

اتسمت أفلام شابلن على الدوام بطابع البساطة الفنية، فالديكورات اللازمة لأفلامه متواضعة، واستخدامه للكاميرا ليس بذي مهارة محسوسة، كما أن المناظر الخلفية تحوي الضروري فقط. فعبقريته التصويرية التي كان هو مبدعها الوحيد تكمن في حركته هو بالذات، وفي فكرته التنفيذية بالنسبة لكل فيلم رئيسي، فمنظر شارلي كما نعرفه الذي تحول فيما بعد وصار هتلر Hitler، ثم تغير بأكمله وأصبح فيردو وكالفيرو، لهو المنظر الذي يتركز عليه كل اهتمامنا في النهاية. ولما كان شارلي

يصور الكثير مما في نفوسنا حينما يتجاوب مع عوامل السرور التي تكنها قلوبنا، والأفراح التي نتمناها، فإن العالم كله تقبله بصورة لم تتيسر لأية شخصية أخرى خلقت في عالم السينما. واستطاع عن طريق التوزيع العالمي للأفلام السينمائية دون غيرها، أن يكون معروفاً في كل مكان بأسماء مشتركة الأصل، منبثقة عن إعزاز عالمي لصاحب الاسم. فهو معروف بأسماء تشارلوت **Charlot**، وكارلينو **Carlino**، وكارلوس **Carlos** ، وكارليتوس **Carlitos**.

5. روبرت فلاهرتي

في الوقت الذي كان فيه شارلي شابن يثرى السينما بأفلامه الكوميدية ذات الأبعاد الإنسانية، ظهر شخص مهم آخر في عالم السينما الأمريكي روبرت فلاهرتي الذي يعد من أوائل المخرجين الذين أسسوا السينما التسجيلية والاب الروحي للاتجاه التسجيلي .

فلاهرتي يمثل ذلك السينمائي المُلهم الذي يجوب الأرض ليصور حياة الناس على طبيعتها وينقل صورتهم عبر كاميرته المتواضعة مزجا بين العلم الذي اكتسبه من أبيه وبين الفن الذي وجدته متدفقا في روحه ، ويعد فيلمه الشهير نانوك من الشمال **Nanook of the North** الذي انتجه في عام 1922 هو التأسيس الفعلي للسينما التسجيلية ، والذي قدم فيه دراسة فعلية لحياة الأسكيمو وطرق عيشهم وحياتهم ، ومن أفلامه الرائدة التي اخرجها ايضاً فيلمه (**Moana**) موانا في عام 1926 كما قدم أفلاما تسجيلية عديدة كانت النواة الأساسية للفيلم السينمائي التسجيلي .

6. سيرجي آيزنشتاين

لم يكن هذا المخرج والكاتب والأسطورة السوفيتية مجرد سينمائي فقط .. بل كان أحد أعظم نقادها ومنظرِّها على مر التاريخ ، إيزنشتاين يأتي من صنف السينمائيين الذين كانت السينما ستتأخر لولا ظهورهم ،اذ ساهمت ابتكاراته السينمائية بإحداث ثورة عارمة في عالم الفيلم السينمائي ، حيث أصبحت آراؤه النقدية ونظرياته السينمائية إحدى أيقونات النقد السينمائي ، وكتبه ومقالاته الشهيرة أصبحت فيما بعد من أهم الكتب والمقالات التي يفتتها النقاد العالميون الكبار . في عام 1919 قام آيزنشتاين بإنشاء معهد سينمائي اعتبر النواة الاولى للسينما السوفيتية.

واستطاع هذا الفتى الروسي الذي يبلغ من العمر 27 عاما فقط ، ان يخلق سينما ذات وجه مختلف وأساليب مونتاجية متفردة لا مثيل لها في ذلك الوقت تجسدت في اعماله الكثيرة .